وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
المرحلة الثالثة
المادة: فلسفة التاريخ

التفسير الماركسي للتاريخ

أ. د. مثنى عباس عواد

التفسير الماركسي للتاريخ:

أ- السمات العامة:

يعد التفسير الماركسي للتاريخ (المادية التاريخية) أحد أبرز إفرازات الفكر الفلسفي الغربي في مجال فلسفة التاريخ أواخر القرن التاسع عشر، إذ هو يشكل جانباً مهماً من هيكل الفلسفة الماركسية بصورة عامة، والتي عرفت بالمادية الديالكتيكية، والتي غدت منظومة فلسفية ذات مضامين معرفية واجتماعية واقتصادية لاقت انتشاراً في العالم خلال القرن العشرين لم يحققه أي من المذاهب الفلسفية الحديثة، وتميزت بسعيها نحو تطبيق أفكارها على أرض الواقع، يقول ماركس: "كان الفلاسفة حتى الآن قد فسرو العالم بطرائق شتى، ولكن المسألة هي أن نغيره.

وقد تهيأت الظروف لهذا التغيير الذي أراده ماركس بقيام ثورة أكتوبر في روسيا عام ١٩١٧، إلا أن التغيير لم يكن في العالم كله كما تمناه ماركس، وبدأ بالتراجع والاضمحلال قبيل حلول العقد الأخير من القرن العشرين، ومع ذلك فإن التطبيق العملي للفلسفة الماركسية كان تجربة مميزة لم يتسن لأية فلسفة حديثة أن تمر بمثلها بما فيها الفلسفات غير المثالية كالوضعية والبرغماتية.

يبدو أن الانتشار الذي حققه الفكر الماركسي قد استند إلى تناغمه مع تطلعات الطبقات الاجتماعية المكافحة، مما لا يعني أن صحة طروحاته وموضوعيتها كانت بالضرورة هي السبب في انتشاره، بل يذهب (الكسندر غراي) إلى أبعد من ذلك حين يصور ماركس بأنه "واضع أساطير لا يؤبه فيها للحقيقة ما دامت الأسطورة تصور ما يرغب في أن يعتقده".

كانت (المادية) و(الديالكتيك) الأساسين الذين قامت عليهما الفلسفة الماركسية وعملية تفسير التاريخ التي انبثقت عنها، وعلى الرغم من أن هذين الأساسين قد عرفتهما الفلسفة منذ زمانها الإغريقي الأول، فإن الجمع بينهما في نسق فلسفي واحد يتضمن تفسيراً لحركة التاريخ لم يتطرق إليه الفلاسفة قبل ماركس الذي أراد كما يرى الماركسيون، أن يحقق (تصوراً جديداً للعالم)، حينما زاوج بين مادية (فويرباخ) وديالكتيك (هيغل).

ويعد المفكرون الماركسيون أن ما قام به ماركس هو إصلاح للخطأ الذي وقعت فيه (الفلسفة القديمة)، حينما فصلت بين المادية والديالكتيك، فبادر ماركس مع زميله أنجلز، إلى

جسر الهوة بينهما حينما صاغا الفلسفة المعروفة بالمادية الديالكتيكية، التي كشفت عن معظم القوانين العامة التي تحكم تطور العالم المادي من وجهة نظر أولئك المفكرين.

وتمثل (المادية) في الفلسفة الماركسية عموماً، وفي التفسير الماركسي للتاريخ بشكل خاص (المذهب) الفلسفي الذي اعتمدته تلك الفلسفة واستند إليه ذلك التفسير، إلا أن هذه (المادية) اختلفت في مفهومها عن سائر المذاهب المادية الفلسفية، واستقلت بشكل أساسي من مادية (فوير باخ) وتصوراته العملية لوظيفة الفلسفة التي تذهب إلى أن الفلسفة عليها أن لا تحصر نفسها ضمن حدود الفكر المحض، ذلك أن وظيفتها تكمن في دراسة الطبيعة والإنسان.

ويشار إلى أن تأثر ماركس بفويرباخ يرجع إلى ما جمعهما من مشتركات فكرية أهمها إيمانهما معاً بقوانين الجدل الهيغلي، وتمردهما معاً في الوقت نفسه على مثاليته المتمثلة بفكرة الروح المطلق الذي يكمن وراء حركة التاريخ، على أن اختلاف (مادية) الفلسفة الماركسية – الذي أشرنا إليه من قبل – عن مثيلتها في الفلسفات المادية الأخرى، يتمثل في أن ماركس كان لا يعد المادية موضوع بحث نظري قائم على جعلها الحقيقة الموضوعية الوحيدة كما يفعل الفلاسفة الماديون، بل هي لديه ذات علاقة بالإنسان والمجتمعات البشرية المتطورة، تتجلى أهم مظاهرها في عملية الإنتاج، ومن ثم تصبح المادية لديه عملياً لفظاً مرادفاً للاقتصاد.

أما (الديالكتيك) فيمثل (المنهج) الذي اعتمد في كل من الفلسفة، وتفسير التاريخ الماركسيين، وهو الآخر استمده ماركس من قوانين الجدل الهيغلي، إلا أن ماركس قد خالف هيغل حينما لم يتبن مثاليته، بل اعتنق المذهب المادي المناقض لها، وكان يفتخر بأنه أخذ منطق هيغل الديالكتيكي ثم قلبه رأساً على عقب، أي أنه في تطبيقه للمنهج الجدلي في الكشف عن حركة الكون والإنسان ابتدأ بالطبيعة وانتقل إلى الفكر على عكس ما فعله هيغل الذي ابتدأ بالفكر وانتقل إلى الطبيعة، فهيغل من وجهة نظر ماركس، كان واقفاً على رأسه، فعدل هو وقفته وجعله قائماً على رجليه.

ويرى الفلاسفة الماركسيون أن هذا العمل قد كشف عن التناقض في فلسفة هيغل المثالية التي عدت "الطبيعة والمجتمع شكلان لوجود الفكرة المطلقة"، ويصف بعض هؤلاء تعامل الفلسفة الماركسية مع ديالكتيك هيغل، بأن الديالكتيك كان هو "اللب العقلي الذي أخذه ماركس وأنجلز من فلسفة هيغل، وبعد أن جرداه من قشرته المثالية استخدماه لابتداع المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية".

وبناء على المفهوم الماركسي للمادية والديالكتيك، يميز ماركس فيما يخص تفسير التاريخ بين ما يسميه التاريخ الدنيوي أو (تاريخ الإنسان)، وبين ما يدعوه التاريخ المقدس أو (تاريخ الأفكار)، إذ يرى أن التاريخ الذي يكشف عن طبيعة المجتمعات وتطوراتها وصراعاتها الداخلية هو تاريخ الإنسان وحركته عبر بعدي الزمان والمكان، وليس التاريخ الذي يجعل الإنسان أداة تستخدمها الفكرة أو العقل المطلق، للكشف عن نفسها، وذلك كما يترآى لهيغل أو لغيره ممن يتماهى معه في هذه الرؤية كالاشتراكي الفرنسي برودون، ومن ثم فإن مسيرة التاريخ البشري عند ماركس لا يحدوها عامل ميتافيزيقي يتمثل، على سبيل المثال، في الروح المطلق الذي ابتدعه هيغل، بل تدفع بها عنده بالدرجة الأولى عوامل مادية اقتصادية تحرك الطبقات الاجتماعية في صراعاتها المستمرة التي سوف تنتهي بتحقيق المجتمع اللاطبقي (الشيوعي)، وبذلك يبلغ التاريخ غايته، وهي غاية تختلف عن الغاية التي وتقدير رسمها هيغل لمسار التاريخ متمثلة بوعي الروح المطلق بذاتها وتحقيقها لحريتها، ولا تقتصر هذه الغاية عند ماركس، كما هي عند هيغل أيضاً، على تفسير الماضي فحسب، بل هي تهدف أيضاً إلى استشراف المستقبل، وقبل ذلك فهم الحاضر الرأسمالي الذي كان يعيشه ماركس، وأراد أن يبرهن على تناقضاته وحتمية انهياره وضرورة أن يحل المجتمع اللاطبقي والنظام الشيوعي محله في المستقبل.

وكما حققت الفلسفة الماركسية انتشاراً نظرياً وعملياً تجلى بأوضح صوره خلال حقبة الدولة السوفيتية وتوابعها الشرق أوربية، فإن التفسير الماركسي للتاريخ الذي يعزي حركة التاريخ إلى عوامل اقتصادية قد اعتمده كثير من المؤرخين، وتوسعوا في استعماله إلى الحد الذي يخرجه، فيما يبدو، عن طبيعة التفسير الماركسي وحدوده، ويدخله مداخل التعليل لأحداث التاريخ الجزئية بعيداً عن طبيعة فلسفة التاريخ النظرية وتعاملها مع التاريخ البشري العام وأحداثه الكبرى، ويشير (إدوين سليغمان) بهذا الصدد إلى أن هؤلاء المؤرخين يعدون التفسير الاقتصادي قضية مسلماً بها، وطبقوه على أحداث التاريخ وجوانبه المختلفة في جميع العصور، فأرجعوا إليه الحروب الصليبية وحركة الإصلاح الديني وقيام البروتستانتية، والثورات الأمريكية والفرنسية والحروب الأهلية الأمريكية والحركات الاستقلالية القومية في أوربا والأمريكتين.

ب- المادية الجدلية... الأساس الفلسفي لتفسير التاريخ:

يقوم التفسير الماركسي للتاريخ (المادية التاريخية) على الأسس التي وضعتها الفلسفة الماركسية (المادية الجدلية أو الديالكتيكية(، وهي فلسفة صاغها كارل ماركس وفردريك أنجلز،

ويقرر الماركسيون أنها كانت ثمرة لدراسات معمقة قام بها ماركس وأنجلز للفلسفة والطبيعة والتاريخ، فضلاً عن كونها حصيلة عملية لتجاربهما وخوضهما لغمار الحياة السياسية والاقتصادية، وقيادتهما للحركة (الثورية المتعاظمة للبروليتاريا)، وإطلاعهما على أفكار وفلسفات عدة معاصرة لهما ابتداء من مثالية هيغل التي سادت ألمانيا في حقبة شبابهما وجعلتهما يظنان أن التاريخ هو تطور للوعي البشري، وانتهاء بمادية فويرباخ التي فندا طبيعتها التأملية وانعزالها عن الحياة ونضال الشعوب من أجل التحرر، ولكنها أدت بهما أيضاً إلى نبذ مثالية هيغل، ومن ثم فقد عد هؤلاء الماركسيون المادية الديالكتيكية "فلسفة جديدة كل الجدة".

إن ظهور المادية الديالكتيكية، وكما يرى الماركسيون أيضاً، كان "النتيجة الطبيعية للتطور التاريخي، جاءت بها ظروف اقتصادية واجتماعية وفروع معينة من علم الطبيعة وساعدت الفلسفة في إعطائها الشكل اللازم لها"، وقد تبلورت تلك الظروف في منتصف القرن التاسع عشر الذي حلت فيه تماماً (الرأسمالية) محل النظام (الإقطاعي) في كثير من الدول الأوربية، ولكن ففي الوقت الذي كانت فيه الرأسمالية سبباً في حدوث تقدم كبير في الإنتاج والتقنية والعلوم والحضارة بصورة عامة، فإنها قد تسببت أيضاً في الوقت نفسه في ظهور طبقة (البروليتاريا) وهي الطبقة المستغلة من جانب البرجوازية والمجردة من الحقوق الإنسانية الأولية، التي دخلت في صراع مرير ضد الطبقة البرجوازية المستغلة، بهدف تحقيق الإصلاحات الاشتراكية والقضاء على النظام الرأسمالي، إلا أن صراع البروليتاريا آنذاك مع الطبقة البرجوازية لم يؤد إلى نتيجة إيجابية على الرغم من النهضة العمالية التي قامت في فرنسا وألمانيا وإنكلترا مطالبة بحقوق العمال، ذلك أن تلك الحركات النهضوية العمالية كانت تفتقر، كما يذكر الماركسيون، إلى التنظيم، ووضوح الأهداف، وانتهاج السبل والوسائل الكفيلة بإدارة ذلك الصراع الطبقي بنجاح لصالح طبقة العمال، فالصراع الذي كانت تديره هذه الطبقة كان بحاجة إلى نظرية علمية تستند ليس إلى وقائع العلم والمجتمع والاقتصاد فحسب، بل إلى التاريخ في صيرورته وتطورات أحداثه، كيما تتمكن من كان التعرف على أن الرأسمالية سيؤول مصيرها إلى الزوال، وأن البروليتاريا سوف تنتصر في صراعها معها وتتمكن من إقامة المجتمع الاشتراكي الجديد، وهذا ما حققته الماركسية (المادية الديالكتيكية)، وجانبها النظري.